مكتبة متخصصة
تاريخ الإسلام والحضارة
١٣٧٣

المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الثاني والثلاثون
العدد الثالث ٢٠٠٥م ١٤٢٦هـ

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة
- الأعظمية -
ص. ب : ٤٠٣٢ بغداد
جمهورية العراق
هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤
فاكس : ٤٤٨٧٦٠

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: دينارات، الإمارات: ٣٠ درهماً، اليمن: ٣٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٣ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: دينارات، المغرب: ٣٠ درهما.

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية.
في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

رئيس التحرير
د. محمد حسين الاعرجي

هيأة التحرير

مدير التحرير
احمد عبد زيدان

سكرتير التحرير
محمود الظاهر

الهيأة الاستشارية
أ.د. خديجة الحديثي
أ.د. كمال مظهر
أ.د. فائز طه عمر
أ.د. داود سلوم
أ.د. مالك المطلبي
الاستاذ حسن عريبي

التصحيح اللغوي
سليم سلمان
نجلة محمد

الإشراف الفني والتصميم
جنان عدنان لطيف

www.dorat-ghawas.com

البستي بين يدي العاشور..... د. محمد حسين الأعرجي ٣

مقابسات في الفلسفة الصوفية.

القسم العاشر..... عزيز عارف ٤-١٥

الجوانب الفنية في صور كتاب

الحيوان للجاحظ..... د. سلسل محمد العاني ١٦-٢٧

مفهوم العدل في فلسفة الفارابي..... أ.د. ناجي التكريتي ٢٨-٣٠

مقدمة القصيدة عند محمد بن حميد

الهمداني اليمني بين التقليد والتجديد..... د. محمد احمد العامري ٣١-٥١

جهود القاضي الفاضل السياسية والعسكرية

والثقافية في دولة صلاح الدين الأيوبي.....الدكتور علي نجم عيسى ٥٢- ٥٦

شعر يوسف بن لؤلؤ الذهبي [ت ٦٨٠ هـ]

القسم الثالث ..... تحقيق عباس هاني الجراخ ٥٧-٧٧

ديوان أبي الفتح البستي

النسخة الكاملة - القسم الأول- ..... تحقيق / شاكر العاشور ٧٨-١٠٦

تحسين القبيح وتقبيح الحسن

في طبعته المسروقة .....أ.د. سامي علي عبد الجبار ١٠٧-١٠٨

الدكتور ابراهيم السامرائي ١٩١٦-٢٠٠١..... عبد الله السريحي ١٠٩-١٢٨

المنتخب من مخطوطات مكتبة الجوادين

العامة في الكاظمية..... بقلم حكمت رحماني ١٢٩-١٣٩

www.dorat-ghawas.com

مقدمة القصيدة عند محمد بن حمير الهمداني اليمني بين التقليد والتجديد

د: محمد أحمد العامري
كلية التربية - جامعة صنعاء

تحتل المقدمة في القصيدة مكانة على درجة كبيرة من الأهمية، فهي بمنزلة الوجه والغرة، وهي همزة الوصل ووسيلة التعارف الاولى بين الشاعر والمتلقي، وما بعدها يبنى عليها. كما أنها أشبه بالشفرة الفنية التي تحمل رمز القصيدة، وضعها الشاعر في مطلع قصيدته لتوحي بجوها وتومئ لموضوعها وتلمح لفكرتها [1]. لذلك كان من الطبيعي ان يعطي الشاعر مطلع قصيدته ومقدمتها اهمية خاصة، فيبدؤها بما يطرب الاسماع ويجذب الاهتمام .ويعطيها الجهد الاكبر والعناية الخاصة إجادة واتقانا.

وقد درج العرب قبل الاسلام وفي العصر الاموي على أنماط محددة من المقدمات تدور حول ((ذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها)) [2]. وذكر الحبيبة وطيفها الزائر، والتغزل بمفاتنها، ووصف الاظعان، وما يخلفه الفراق من لوعة وأسى، ووصف الرحلة والصحراء التي يقطعها، وربما وصف راحلته وما يراد أو يتخيل أنه لقيه من حيوانات، وقد يبدأ الشاعر قصيدته برثاء نفسه وبكاء شبابه، ويصور صدود الغواني عنه، الى غير ذلك من انواع وعناصر المقدمة التي ظلت عرفا مهيمنا على مقدمة القصيدة العربية حتى مطلع العصر العباسي بغير نزاع ولا تمرد [3]، وفي العصر العباسي الاول بدأنا نسمع اصواتا تدعو الى الخروج عن تلك التقاليد، بل تسخر منها، وهي اصوات دافعها اما شعوبي، أو مجون، واشهر دعاة ذلك بشار، ومسلم بن الوليد، وابو نواس، وهذا الاخير اشهرهم.

غير ان تأثير تلك الاصوات لم يكن كليا بل جزئيا اذ ظل تأثر الشعراء بالمقدمة الجاهلية والأموية الى عصور متأخرة كما هو الحال لدى شاعرنا محمد بن حمير المتوفى ٦٥١ هـ .

وتكتسب دراسة المقدمة لدى الشاعر اهمية متعددة الأوجه، فهي فضلا عن كونها دراسة لما يفترض ان يكون أجمل مقطع في القصيدة فانها وسيلة في يد الناقد تمكنه من معرفة الشاعر والغوص في اعماقه ذلك ان المقدمة هي الجزء الذاتي الأكبر في القصيدة وهي الشفرة التي يمكن بواسطتها قراءة نفسية الشاعر وجوانب شخصيته المختلفة.

ولعله من المناسب قبل ان نلج في الحديث عن مقدمة القصيدة لدى الشاعر محمد بن حمير ان نلم بنبذة عنه وعن ديوانه.

حياة ابن حمير وشعره:

هو محمد بن حمير بن عمر الوصابي الهمداني، يكتنف الغموض مكان وزمان ولادته، فلا يمكن الجزم بذلك، بل على سبيل الظن، فلعل مولده كان في قرية الحرف عزلة جران في بلدة وصاب [4]، الى الجنوب الغربي من صنعاء. والراجح ان تاريخ ميلاده يعود الى بداية الربع الاخير من القرن السادس الهجري أي في حدود سنة ٥٧٥ هجرية أو قبلها أو بعدها بقليل [5]. ارتحل عن وصاب الى تهامة، وكان كثير الترحال في اقاليم اليمن يمدح الامراء

www.dorat-ghawas.com

والاعيان. توفي في مدينة زبيد سنة ٦٥١ هـ وفيها دفن[٢].

أما عن شعره فقد كان شاعرا مجيداً فحلا مكثرا لم يختلف مؤرخو الأدب اليمني حول الحكم بتقدمته في مجال الشعر والأدب على كثير من شعراء عصره، بل لم يقرنوا به سوى شاعر واحد من شعراء اليمن في عصره هو القاسم بن هتيمل. واختلفوا في المفاضلة بينهما، وكانا في عصرهما كأبي تمام والبحتري في عصرهما. ومما جاء في المفاضلة بينهما قول الشاعر ابن سحبان:

أما قصائد قاسم بن هتيمل

فمذاقه احلى من الصهباء

هو شاعر في عصره فطن

لكن ابن حمير اشعر الشعراء[٣]

كما ان لابن حمير نثرا أدبياً رفيعا لكنه حرص فيه على لزوم انواع البديع من سجع وجناس وطباق ومقابلة، كما انه يكثر فيه التضمين والاستشهاد بالحكم والامثال، وآيات القرآن الكريم وقصص السابقين[٤]. وهو في نثره يمثل عصره أكثر منه في شعره.

ديوانه:

ديوانه الذي بين ايدينا قام بتحقيقه العلامة محمد بن علي الاكوع[١]. وأضاف اليه بعض القصائد والمقطوعات التي نسبتها المصادر الى ابن حمير، ويحوي (١٥٤) قصيدة و(١٨) مقطوعة، و(٥)نتف (٥) أبيات مفردة. ومجموع أبياته (٢٠٨٧)[٢] بيت وهو عدد ليس بالقليل لكنه يقينا لا يحوي كل شعر ابن حمير[٣]، ذلك ان ابن حمير عمر اكثر من (٨٠) عاما، وكان ثر القريحة سريع البديهة، قوالا في جميع الاغراض، وما بين أيدينا جله بل غالبيته العظمى ينصب في غرض المديح، غير ان هذا الموجود يصلح ويكفي بكل تأكيد لأن يعطي رؤية نقدية واضحة وحكما صحيحا على مختلف الجوانب المتعلقة بشعر ابن حمير، ومنها طبيعة بنائه لمقدماته.

لزومه المقدمة:

اتبع ابن حمير تقاليد القصيدة العربية في بناء قصائده فيما يتعلق بالمقدمة، فلم يتحرر منها الا قليلا، فمن مجموع قصائده الـ(١٥٤) نجد منها(١١٦) قصيدة بدأت بمقدمات، و(٢١) قصيدة منها عبارة عن قصائد غزلية قصيرة ما بين (١٢٨) بيتا يغلب على ظني، بل أكاد اجزم انها في الاصل مقدمات لقصائد سقط بقيتها، و(٩) قصائد قصيرة لا يتجاوز كل منها (١٠) ابيات وردت ضمن رسالة نثرية اعتذارية، ليس لها هيبة القصيدة وجلالها واستقلالها وقصيدة اخوانية ضمن رسالة اخوانية بعث بها ابن حمير الى صديقه الشاعر (ابن هتيمل). فيمكن ان نعد مجمل القصائد التي وردت بغير مقدمات (٨) قصائد فقط.

طبيعة مقدماته:

مشى ابن حمير في نظم مقدماته على طريقة القدماء، وصبها في قوالبهم التي تداولوها من تغزل بالمرأة ووصف لظعنها، ومرابعها، والسؤال عنها، والحنين الى ماضيه معها، وشكوى ألم الفراق، استغرق ذلك منه مقدمة (١١٢) قصيدة من مجموع قصائده الـ (١١٦) التي بدأها بمقدمات.

ولكن ليس معنى ذلك ان ابن حمير تام التقليد للسابقين من جاهليين واموين، فهو شاعر مطبوع ذو اصالة وابداع، فإنه وان استعار من سابقيه القوالب، لكن محتواها من معان وصور تظهر فيها أصالته وذاتيته، فضلا عن ان ابن حمير تميزت المقدمة لديه بطول ملحوظ بالنسبة لطول القصائد، لم أجده عند غيره من السابقين بما فيهم جرير، فقد تستغرق المقدمة نصف القصيدة، وقد تستأثر بالقصيدة إلا أبياتا[٤]. وقلما نجد المقدمة لديه تقل عن مقدار ثلث القصيدة. لذلك ليس من قبيل المبالغة ان نقدر مقدماته بقرابة نصف قصائده.

ثم ان مقدماته تتميز بعاطفة ورقة، مع جزالة ومتانة، الى دقة في التصوير وبراعة في اختيار الالفاظ، كل ذلك جدير بأن يعطي المقدمة لدى ابن حمير تميزا، ويعطي دراستها والتوقف عندها أهمية خاصة، ولعل ذلك التميز هو سبب بقاء مقدمات كاملة لقصائد حذف كثير منها[٥]. كما ان الحديث عن المرأة الحبيبة عند ابن حمير في مقدماته لا يأخذ نمطاً واحداً، أو مساراً معيناً، بل نراه كثيراً ما يمزج في المقدمة الواحدة حديثه عن وجده وشوقه وحنينه الى الماضي من ذكراه معها بذكر

www.dorat-ghawas.com

مفاتنها، ومحاسن أوصافها، ويعرج على ذكر رحيلها وظعنها عن ديارها، وحديثه عن مرابعها، يسائل حمامها وأثلاتها وقد يشير الى زيارة طيفها. أدى ذلك الى ايجاز الحديث عن هذه العناصر - خاصة الحديث عن الأطلال والظعن - وحذف معظم الجوانب التي كان يفصل فيها الشاعر الجاهلي والأموي، على رغم ما تميزت به مقدمات ابن حمير من الطول.

نخلص من ذلك الى أن المقدمات: الغزلية والطللية، ووصف الظعن وغيرها لا تأخذ عنده تميزا واستقلالاً على نحو ما نجده عند كثير من الشعراء القدامى، إذ كثيرا ما تختلط هذه فيما بينها، ذلك ان الجانب الأهم في هذه الاشياء الذي تركز عليه وتبرزه مقدمة قصيدة ابن حمير هو الأثر النفسي لدى الشاعر المنبعث من هذه الاشياء لا استقصاء جوانبها وجزئياتها المختلفة التي اعتاد الشاعر القديم الوقوف عندها.

وسنتبع الطريقة التقليدية في تقسيم مقدمات ابن حمير، فذلك هو الأنسب، مبتدئين بالأكثر حضوراً فالأقل.

أولاً - المقدمات الغزلية: تحتل المقدمات الغزلية الصدارة بين مقدمات ابن حمير، إذ تستحوذ على (٨٠) قصيدة من مجموع (١١٦) قصيدة.

والمقدمة الغزلية عند ابن حمير ليست من نوع واحد لا في معانيها، ولا في اسلوبها، بل هي أنواع متعددة لكنها في مجملها تقترب اقترابا كبيرا من المعاني العذرية التي كان يتغنى بها الشعراء العذريون في باديتي الحجاز ونجد لعهد بني أمية ((على أنه قد يرتد بين الحين والحين الى المثال الجاهلي ..، سواء في اصطناعه الاسلوب المتين الجزل الرصين المصقول، أو في اصطفائه الوزن الضخم الذي لا يخلو من جلال، أو في إعجابه بالمثال الجاهلي في الجمال)) [٤]

وثمة صفة اخرى تتجلى بها مقدماته بعامة، والغزلية منها على وجه الخصوص، فهو لا يصعب في الفاظها، ولا يغرب في تراكيبها، بل يختار لها الكلمات الأنيقة العذبة والقوالب الرشيقة، حيث لا تغمض افكارها ولا تعقد معانيها، ولا تلتوي عباراتها [٥] ل في إحدى مقدماته:-

أحب شموساً قد تقلدن أنجما
وأرسلن فينانا من الشعر مظلما
وبدلنني بالوصل منهن جفوة
فأجرين ماء الدمع من مقلتي دما
من الخفرات البيض يسكن بالحمى
وتحمى ببيض الهند والأسل الظما [٦]

تفصح هذه الابيات عن ثلاثة امور :-

- الأول: عن وقوع الشاعر في شرك الهوى، وماجر ذلك عليه من أسى الصبابة، ومعاناة الفراق الناتج عن صدها وجفائها، حتى أبكاه دماً لا دمعاً.

- الأمر الثاني: ألمت ببعض الأوصاف الحسية والمعنوية لهذه المحبوبة، فهي بيضاء، كالشمس جمالها وبهاؤها، وهي كاملة الزينة، تهتم بمظهرها الأمر الذي يزيدها بهاء وجمالاً، وهي ذات شعر شديد السواد، كثيف طويل، عرفنا ذلك من خلال جملة ((أرسلن فيناناً ...))، ثم هي حيية خفرة، فليست برزة، ولا متهتكة، وهذه الصفة المعنوية تزيدها في عين الشاعر رفعة وجمالاً.

- الأمر الثالث: أنها محاطة بحراس أشداء متيقظين، أدى هذا المعنى بصورة بالغة الدلالة: ((وتحمى ببيض الهند . .)). فالرماح والسيوف هي الحامية لها، وفي حدها الحد بين الجد واللعب فكيف السبيل اليها ؟ وأنى له ان يخترق تلك الحماية العتيدة ؟ ولعل هذه الحماية اليقظة، والحراسة المشددة عليها، فضلا عن تمنعها هي، وجفائها له، قد ضاعفت مأساة الشاعر، وجعلت جو الكآبة واليأس والقنوط يسيطر عليه. وقد يكون استخدامه كلمتي ((شموس، أنجم)) بما في الشمس والنجوم من بعد وعلو صدر عن لا وعي الشاعر المتشبع بالحسرة واليأس الذي اصبح يحس ان وصوله اليها كمن يريد الوصول الى الشمس والنجوم.

هذه المعاني من معاني الشعراء العذريين التي تغنوا بها وترددت لديهم كثيراً، غير ان ابن حمير تميز بسرد قدر كبير من الأوصاف الحسية للمرأة التي تدل على نهمه وشراهته، نجد ذلك

www.dorat-ghawas.com

في كثير من مطالعه، ونجد شيئا من ذلك في الأبيات السابقة حيث يقول :-

هي الشمس لكن بالهلال تحلوقت
هي البانة الملدا عذبية اللما
تريك الدجى والنور والغصن والنقا
وتحكي وميض البرق إن ابتسمت فما
وفي لفظها سحر وفي لحظاتها
وفي خدها من حسنها جذوة وما
ولو أنها نادت بحسن كلامها
من القبر ميتا ثاويا لتكلما
عسى وطن يدنو بهم و لعلما
وان تعقب الأيام وصلاً فربما

تحول الشاعر في الحديث عن محبوبته في هذه الأبيات من ضمير الجمع الى ضمير المفرد، لما يؤديه الالتفات من معان. ولما فيه من شد انتباه المتلقي[2] نحو الشاعر، لعله إذا عرف أوصافها يعذر الشاعر في صبوته وصبابته، خصوصاً إذا عرفنا ان الشاعر قال هذه الأبيات وهو في السبعينيات من عمره.

وكما هو بين أن الشاعر - نتيجة لنهمه وشراهة نفسه - حشد من اوصافها ما يشبع أكثر الحواس الذوقية (عذبية اللما)، اللمسية (البانة الملدا)، السمعية (في لفظها سحر، ولو أنها نادت بحسن كلامها ...)، لكن الطغيان الأكبر حشد لإشباع العين، لأنها اكثر الحواس شعورا بالجمال، وإحساسا به .

ونجده في مقدمة قصيدة اخرى يسأل عنها مكررا بعض المعاني السالفة، ومبرزا فيها معاني عذرية أخر، لكنه في هذه المرة اقل ابهاما عنها فانه ان كان في المقدمة السابقة قد ابهم اسمها، وقومها وبلدها فانه في مقدمة القصيدة التالية التي قالها يمدح الملك المنصور عمر الرسولي قد أفصح عن انها من أهل اللوى :-

هل عندكم من أناس باللوى خبر
أم لا فأترك ماء العين ينحدر
ما لي وقفت على البانات أسألها
عنكم وليس يجيب السائل الشجر
بالله ربك سامرني بذكرهم
فقد يلذ لسمع السامر السمر
هل الكثيب ورائي هب فيه صبا
أم النخيلات بعدي جادها المطر
مالي وما لعدائي دون بيضهم
بيض الصفائح والأرماح تشتجر
إني لأعشق في أخدارهم قمراً
ولا ملامة في أن يعشق القمر
نشوان ما ذاق خمراً غير ريقته
والسكر النبت فيما ذاق والسكر
ما لي وصحبة جيران الغضا وهم
ان صاحبوا نكثوا أو عاهدوا غدروا
يلوي على الرملة الوعسى بها عوضا
ولج في الهجر لا يبقي ولا يذر
ما لي شغلت بمشغولين عن ولهي
لا بل سهرت لنوام وما سهروا
قوم إذا هجروا قالوا جرى قدر
فما لوصلي لا يجري به قدر[3]

فالشاعر بعيد مفارق على عادة العذريين يتنسم أخبار محبوبته يسأل عنها كل من قدر على سؤاله وان لم يجد فليتجه الى النخيل أو البان أو حمام الوادي، عله يجد بعض ما يتمناه من أخبار سارة تخفف عنه أحزانه، وتعيد العافية اليه. ولن نجاوز الصواب إذا زعمنا ان الشاعر وهو يسأل عن أحبابه لا ينتظر جواباً - وإن كان يتمناه - ليس لأن الشاعر لم يعط تحديدا واضحا للمسؤول عنه ((أناس باللوى)) بل لأن المسؤول هنا عاجز عن ذلك ((وليس يجيب السائل الشجر))، لكن الشاعر يجد متعة في السؤال فلا عليه أن يسأل.

اتكأ الشاعر في هذه الأبيات على الاستفهام ليحمل عنه جزءا مما يعانيه من ألم وصبابة، وليحمل عنه بعض العجز الذي يحس به : (هل عندكم من أناس ..؟ أم لا ..؟ مالي وقفت ..؟ هل الكثيب ..؟ أم النخيلات ..؟ مالي، وما لعدائي ..؟ مالي وصحبة جيران ..؟ مالي شغلت .. ؟ فما لوصلي ..؟).

www.dorat-ghawas.com

ان غفلة الشاعر عن سرد أوصافها على عادته واطلاقه الاسئلة بهذه الكثافة، والتمرد الخفي والهجوم الخافت الذي بلغ ذروته في البيت الأخير الذي أبدع فيه الشاعر وأجاد لا يخلو كل ذلك من مدلولات عميقة الاثر. ولا بد أن يكون مبعث ذلك أمرا ذا بال اذ ازورارها من شيخوخته، ذلك ما تصرح به الأبيات اللاحقة:

ما انكرت من حلول الشيب عاذلتي

.....

ونستمع اليه في مقدمة ثالثة يعزف الأنغام العذرية العذبة الحلوة الرشيقة نفسها، لكننا في هذه المرة لا نسمع تلك الشكوى المرة او ذلك اليأس المطبق.

يقول في مقدمة قصيدة يمدح فيها ولد الفقيه محمد بن الحسين:

يا دار أسماء بين البان والعلم

سقى ربوعك هطال من الديم

يا دار أسماء عاد لي في الحشا ألم

غالطت عنه فداوي بالهوى ألمي

يا دار اسماء إن أهلوك ما ندموا

علي فإني عليهم ظاهر الندم

هم أرسلوا الطيف حتى زارني سحرا

فمرحبا بمزار الطيف في الحلم

وان أيسر حق ان أزورهم

سعيا على الرأس لا سعيا على القدم

هم اسعدوني دهرا لا عدمتهم

وليس غيرهم يشفي من السقم

هم يتهمون بأني قد نسيتهم

وقيس في حب ليلى غير متهم [٣٤]

يصرح الشاعر هذه المرة باسم محبوبته، بل يحدد موقع دارها (بين البان والعلم) فليس ثمة أي تورية أو مواربة، كما كان حاله في المرتين السالفتين، ولا ندري هل (أسماء) اسم حقيقي لمحبوبته ؟ أم انه رمز لها ؟ فإنا نراه يعطيها أسماء كثيرة وكنى متعددة، وهو في هذا يخالف الشعراء العذريين الأمويين، فإنا نجد أحدهم يتمسك دائما باسم امرأة واحدة [٣٥]، ومن الأسماء والكنى التي ترددت في المقدمات الغزلية عند ابن حمير : (سعد، سعدى، ليلى، زينب، أسماء، أم مالك، النخيلة، عاتكة، عزة، أم عمار، ردينة، أميمة ...)، وأحيانا يغفل اسمها كما سلف.

يدفعنا ذلك الى القول: إنها في الغالب رموز لمحبوبته يبتغي بذلك دفع الأذى عنها وعنه، ويؤيد ذلك قوله في موطن آخر:

ولي فيهم من لو أعرض باسمه

قطرن دما زرق الأسنة والظبا [٣٦]

وفي هذه الأبيات يحاول الشاعر أن يظهر لها حبه، واستعداده للوفاء، وعدم تبرمه منها ويدعو لديارها بالسقيا على عادة القدامى، ويوضح لها مدى سروره بزيارة طيفها له، واستعداده لزيارتها ولو على الرأس، بل يرى أن ذلك أيسر ما يمكن أن يقوم به نحوها، لكنه في الأخير وعلى رغم ابدائه ذلك كله، يرى أنهم يتهمونه بالنسيان وعدم الوفاء. فنفى ذلك عن نفسه،موجزا في قوله : (وقيس في حب ليلى غير متهم) بيان استحالة أن ينساهم أو يتخلى عنهم، لكنه أحس ان ذلك غير كاف فإنها دعوى قد لا تلقى مكانها من القبول والرضا لدى محبوبته، فلم يجد بدا من الاسترسال في تأكيد حبه ووفائه لهم. وعدم إعراضه عنهم، أو استعانته بهم آخرين غيرهم:

إن كان سمعي في أهل العقيق وعى

سوءا فعاقبه الرحمن بالصمم

أو كان قلبي يهوى غيرهم فهوى

أو كان أبصر طرفي غيرهم فعمي

هم يعتبون ولا أصل لعتبهم

ويعرضون وما الاعراض من شيمي

أخاطب البرق أن يسقي ديارهم

ولو أراد بعد معي أو أراد دمي

ولو أرى لهم نقشا على حجر

قبلت ذاك حتى يمحى بفمي

بالله يا ركب نجد إن عثرت بهم

ذكر أحبتنا الماضين بالذمم

www.dorat-ghawas.com

أقسم لهم بحياة الحب أني لم

أنقض يدا وكفى بالحب من قسم

وإن أبوا فتعال اقصص لهم خبري

فإن شرح هواهم غير منكتم

لقد بلغ الشاعر الغاية في تأكيد حبه ووفائه، فلم يترك للشك مجالا. ولا للريبة بابا، إلا حاول أن يسد ذلك بأساليب مقنعة، وصور راقية أنيقة، ووسائل متنوعة: فهو يدعو على حواسه واعضائه بمختلف العاهات ان انصرف عنها شيء منها، وكيف تستقيم تهمتها له بالإعراض عنها وهو مستعد أن يسقي ديارها بدمعه ودمه ان بخل عليهم المطر؟ وهكذا تتوالى الإثباتات برقة وخفة وحرارة عاطفة يستهوي صدقها صم الجنادل.

ولكن يبدو أن تهمتها تلك ديدن منها تعذبه بها مع علمها ببراءته وصدق حبه وخالص وفائه فإنا نراه يشكو من ذلك التعنت في موطن آخر:

علي تعتب سعدى في تنائيها

فاسمع شكيتها وانظر تجنيها

قالت رضيت ببعدي عنك لو قبلوا

مني الفداء بنفسي كنت أفديها

لم يبك يعقوب إذ جاؤوا بنيه(كذا) عشا

بلا أخ كبكائي يوم فقديها

بيني وما بين سعدى شاهدين (كذا) على

ما كان سر حسة نعمان ووادیها [٢٤]

سعدى هنا هي اسماء هناك فهي الجانية، وهي سبب الفراق، ثم هي بعد ذلك تلقي عليه اللوم والعتب، وتتهمه بما هو منه بريء، فلم يكن منه إلا أن يدافع عن نفسه ما استطاع، وان كان متأكدا من يقين علمها ببراءته، فذهوله وحالته وتلهفه بادية للعيان، لا تحتمل الشك، ولا تحتاج إلى برهان:

أسائل البرق عنها في ترقرقه

والسحب حيث غدت وطفا غواديها

حتى الحمائم في الأغصان إن سجعت

لإلفهن حسبت الورق تعنيها

تالله اقسم أني من تذكرها

تمضي علي صلاتي لا أصليها

يا ليت أن النوى تدني تباعدها

أو ليتها تسمع الداعي فادعوها [٢٣]

وهكذا يستمر الشاعر في البرهنة على تعلقه بها، وشغفه الذي أذهله عما سواها، وكأن الحياة كلها قد اختزلت فيها، فالبرق يعرفها، والسحب حيث مرت تحمل اخبارها معها، وتغريد الحمام وسجعها على الأيك متجه نحوها، فليس ثمة جزء من أجزاء الكون لا يعرفها.

وبما أن الشاعر يعيش بعيدا عن محبوبته بسبب ظعنها وفراقها أو بسبب صدها وهجرها أو بسبب الرماح المشرعة والعيون اليقظة والحراسة الشديدة، أو بسبب سفره هو أحيانا قليلة فإنه يبقى أسير الذكريات يعيش في ظلالها ويحن اليها ويبكي زوالها، نجد ذلك لديه في مواطن كثيرة منها قوله [٢٥] في قصيدة يمدح فيها الشيخ راشد بن مظفر:

تذكر إلفا بالعقيق ومسكنا

وشوقه البرق الذي لاح موهنا

فبات كما بات السليم مسهدا

يعالج وجدا من هناك ومن هنا

إذا ما اشتكت من سطوة الدمع عينه

شكا الجسم ما يلقاه من سطوة الظنى [٢٦]

ونسمعه في موطن آخر يقول:

ما إن تذكرت أيامي بذي سلم

إلا مزجت دموعي من اسى بدم

ولا حكى لي قوم باللوى خيم

إلا وناديت واشوقا إلى الخيم

يا بانة العلم الغربي فوق قبا

ما حال جيرتنا يا بانة العلم

وكيف أخدار ليلى بعد رحلتنا

سقى معاهد ليلى واكف الديم

قالوا شغلت بليلى وهي فارغة

فقلت ليس المعافى مثل ذي سقم

www.dorat-ghawas.com

قالوا قرارتك كي تبرى فزدت ضنى

فقلت بل زادها برحاً لماها زاد في ألمي

ما إن يحن إلى الأوطان مغترب

إلا حننت إلى أيامي القدم[٢٦]

والشاعر في كلتا المقطوعتين، كما هو في سائر شعره الغزلي يقتفي آثار شعراء الغزل العذري في باديتي نجد والحجاز كما اسلفت مرارا، غير أنه في المقطوعة الثانية يبدو أنه اتخذ واسطة عباسيا هو أبو حفص عمر بن الفارض(ت ٦٣٢هـ) وذلك في قصيدته التي مطلعها:

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم

أم بارق لاح بالزوراء فالعلم[٢٧]

فالأثر واضح بين فقد استعار منه نفسه، ووزنه وقافيته،ولا نستبعد أنه استعار منه بلدة ((ذي سلم)) قاصداً بها بني سلمة[٢٨] وجعل منها البؤرة التي تؤجج مشاعره وتبكي عينيه كلما تذكر ماضيه فيها.

وثمة مقدمة اخرى اضاف فيها الشاعر الى معانيه تلك المألوفة معاني قلما تتكرر في شعره، وذلك في قصيدة اعتذارية، قالها يعتذر الى الشيخ أبي بكر بن معيبد الأشعري جاء فيها :.

أعاني هوى ليلى وكيف أعاني

وأدنو إلى من ليس بالمتداني

وأرعى لها أيام إذ هي جارتي

وإذ خدرها المضروب قيد عياني

وما خنت ليلى يعلم الله عهدها

ولا ملت للواشي غداة لحاني

ولا غيرتني شقة البعد بعدها

إذا غير الاخوان جور زمان

ولا اعتدت تسهيد الجفون وإنما

جفتني ليلى والمنام جفاني

دعاها الهوى لما دعاني الهوى لها

فلبت كما لبيت حين دعاني

وكم من محب وهو غير محبب

وحان على من لا يرق (لحاني)[٢٩]

خليلي من سعد بن نبت رقدتما

وبت اشيم البرق وهو يماني

فلو كنتما مثلي مشوقين أو معي

لأشجاكما مسراه حين شجاني

أعينا على ما بي من الهم واشكرا

على ذاك من عافاكما وبلاني

فإن خليلي من يقاسمني الأسى

ويشركني في نائب الحدثان[٣٠]

فهذه الأبيات جاءت متضمنة المعاني السابقة التي مرت معنا، حيث بينت سهره ومعاناته من حبه لها وصدها عنه، كما اكد فيها الشاعر وفاءه وعدم ميله عنها، غير أننا نجد فيها بعض الملامح قليلة الورود في شعره:

منها توهمه خليلين له يخاطبهما ويستعين بهما، وذلك على طريقة الجاهليين، ونلاحظ أنه قد اعطاهما قدرا لا بأس به من المساحة (٤) ابيات. أمر آخر وهو اهم من الأمر الاول ذلك هو اعترافه بأن ما هو فيه من وقوع في شرك الهوى مصيبة وبلاء وهم يحتاج معهما الى مواساة، وعد الخلو منه نعمة يتوجب على المعافى منه أن يشكر لله الذي أنعم عليه وعافاه من ذلك، وورود هذا المعنى قليل عند العشاق، بل نرى شاعرنا إذا لج به الهم وزادت معاناته، وجأر بالشكوى لا يصل به الحد الى هذا المستوى الذي وصل اليه هنا، اسمعه يقول في مقدمة أخرى:

لو كان عندك ما عندي من الكمد

ما نمت ياليل عن ليلى وعن سهدي

ولو وجدت كوجدي يوم ذي سلم

لما رحلت ولكن أنت لم تجد

أشكو هواك وأشكو أن يفارقني

ومن يحب فراق الروح للجسد[٣١]

فعلى رغم ما هو فيه من كمد ومعاناة ووجد وسهاد، وعلى رغم شكواه لكنه لا يعد ما هو فيه مصيبة وبلاء يتمنى زوالهما، بل يعد ذلك نعمة تعادل نعمة الحياة، وزوالها مصيبة تعادل مصيبة الموت وفراق الروح للجسد.

الأمر الثالث الذي اختصت به هذه المقدمة هو اشارة الشاعر

www.dorat-ghawas.com

الى سبب معاناته، ذلك هو حبه لها مع عدم حبها له (وكم من محب وهو غير محبب ...) وان كان في البيت قبله قد ذكر أنهما استجابا معا لداعي الهوى لما دعا، غير أنه يبدو أنها اقلعت أما هو فقد لج الهوى.

وسيطول بنا الحديث جدا إذا أردنا استقصاء الغزل في مقدمات ابن حمير، فلا بد أن نضع عصا التسيار وسيكون ذلك عند مقدمة فيها شيء من التجديد مع بعد عن جو الغزل العذري الكثيف الذي ألفناه منه، وهي مقدمة قصيدة قالها في مدح نور الدين، بقي منها (١٢) بيتا تشكل المقدمة (١٠) ابيات - منها به:

بدت في المرط عاتكة تهادى
فمادت كالقضيب حين مادا
وأومض ثغرها فجلا بياضا
وأسبل شعرها فجلا سوادا
وهزت من نواهدها رماحا
ومن اجفانها قضبا حدادا
فقلت لصاحبي صدها فنادى
أرى العنقاء تكبر أن تصادا
فقلت له ترى كيف الثنايا
فقال أظنها دررا بدادا
فقلت فما سهام اللحظ منها
فقال إذا رنت رمت الفؤادا
فقلت حبيبة رجعت عدوا
فقال أعيذها من أن تعادى
فقلت فخلها عني (فغنى)[33]
أردت وغير قلبك ما أرادا[34]

والجديد في هذه المقدمةهو اعتماد ابن حمير فيها على الاسلوب الحواري (قلت : قال) وهي المرة الوحيدة في ديوانه على هذا المستوى.

كما نحسب انه ابتعد قليلا أو كثيرا عن نهجه العذري على نحو ما عهدناه في غزله، فانه وان كان قد سرد أوصافها الحسية وابرز مناحي جمالها وبين صدها وبعد الوصول اليها. بل استحالة ذلك : (أرى العنقاء تكبر أن تصادا) إلا أننا لا نجد ذلك الاحساس المرهف، ولا نحس بحرارة شوقه، وصدق تلهفه ومشاعر الأسى تملأ جنبات نفسه.

ويتضح مما تقدم أن الحال الغالب على ابن حمير في مقدماته الغزلية كحال شعراء الغزل العذري: مهجور باك، أو مفارق حزين، يسائل عن احبائه كل من شد وارتحل، واذا لم يسعفه بشر بجواب، اتجه بسؤاله الى ما حوله من نخيل وبان وحمام، وغيرها من أجزاء الطبيعة علّ جوابا منها يحور.

كما نراه باكيا مستعبرا يستعيد ماضي الذكريات الجميلة، ويأسف على ذهابها، شاكيا لها تبدل الأحباب، وهجرانهم اياه. وما يرمونه به بعد ذلك من تهم الغدر وعدم الوفاء استجابة منهم للوشاة، أو دلالا وغنجا يعجز عن حمل نتائجه. ونراه في ثنايا ذلك يكثر الحديث عن جميل سجاياها التي اسرته بها، ويفصل في اوصافها بغزل حسي عفيف يكاد يخرج به أحيانا عن اطار الغزل العذري، وهو في كل ذلك يفصل تارة ويوجز اخرى حسب ما يقتضيه المقام.

بقي أن نعرج على محاولة مناقشة سبب هذه الكثافة الغزلية وطولها في مقدمات ابن حمير التي تكاد تستقل بـ(٧٧) قصيدة، بل لا يكاد يخلو من الغزل سوى (٤) قصائد من القصائد الـ(٣٩) الباقية، فضلا عن انها تستقل بـ(٢١) قصيدة وقبل اطلاق الحكم في ذلك نقدر سلفا أن حكمنا في ذلك لن يتجاوز مرتبة الظن أو التخمين، إذ لا نجد في سيرة ابن حمير ما يؤكد أمرا ما أو ينفيه، غير أن سبب ذلك فيما يظهر لي لن يتجاوز أحد ثلاثة أمور :-

- الأمر الأول : - إما أن يكون مصدر ذلك ((اعتبار نفسي محض يحسب حسابا كبيرا للمستمعين والمتلقين والقراء)) [35] وهو ما ذكره ابن قتيبة في تعليل ابتداء الشاعر بالنسيب وهو ((ليميل نحوه القلوب، ويصرف اليه الوجوه ويستدعي به اصغاء الاسماع اليه، لأن النسيب قريب من النفوس، لايط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، والف النساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلالا أو حراما))[36].

www.dorat-ghawas.com

وعلى وجاهة هذا القول وصحة كون شعر الغزل ((بحق فخا لاوسع عدد من المتلقين وسببا لاحتوائهم وضمان انحيازهم للقضية المركزية للقصيدة التي يسعى الشاعر الى توكيدها))[٣٣] فانا لا نرى هذه الكثافة الغزلية التي عند ابن حمير عند الشعراء الاقدمين الذين قيل فيهم هذا الكلام، والذين يحتذي ابن حمير حذوهم، فان الشعراء الجاهليين والامويين عودونا ان تكون المقدمة الطللية لا الغزلية أكثر المقدمات ذيوعا في صدور قصائدهم[٣٤] خصوصا قصائد المديح خلاف ما هو الأمر عليه عند ابن حمير. وتتراجع المقدمتان الطللية والغزلية في العصر العباسي بشكل أكبر فهل كان ابن حمير أحرص الجميع على استمالة الناس لشعره حتى يبدأه بالغزل ؟

- الأمر الثاني: أنه تعبير عن طبيعة نفس الشاعر الظرفة اللاهية، وحبها للمتعة، مع عجزه عن أن يفحش في غزله لأنه اطلق قصيده في علماء ومشايخ طرق صوفية، أو ملوك وسلاطين، ثم أن المتغزل بها كما أشار مرارا، حرة مصونة محمية بأهل وعشير - لا أمة متهتكة على نحو ما نجده مع شعراء بغداد وغيرها، خصوصا في العصر العباسي الأول.

ولو وصل الينا كل شعره لاستطعنا عندها أن نثبت هذا الأمر أو ننفيه عن بينة فانه حتى ما جاء من قصائد كاملة أو مقطوعات في الغزل سبق أن قررنا أنها - على الأرجح - مقدمات سقطت بقاياها، لذلك لا تمثل حقيقة الشاعر الماجنة حق التمثيل.

- الأمر الثالث: ان غزله إنما هو غزل رمزي ((لم يقصد به الى النساء، وإنما هو تصوير لعواطف تتصل ببعض الناس، ولم يكن الجو السياسي ملائما للتعبير عنها تعبيراً مباشراً))[٣٥]، ولعل ما يؤيد هذا هو التنوع المفرط في اسماء النساء المتغزل بهن في مقدماته. ولكن هذا الأمر ان صح فانه سيصيب في حالات وسيخطئ حتما في أخرى، ويصعب أن نعد غزل ابن حمير كله رمزيا الا ادعاء أو تمحلا.

وهناك أمران آخران، وان كانا أقل حظاً في تأثيرهما في طبيعة مقدمة ابن حمير - في ظني - من الأمور السابقة، لكن لا بأس من الاشارة اليهما:

الأول: ان ذلك ربما يكون قد اصبح عرفا فنيا وتقليدا متبعاً في عصره أو مصره. لكننا سنجد ان نظرة في شعر المعاصرين له لا تقوي ذلك فانا وان كنا نجد غزلا في مقدماتهم، لكن ليس على ذلك المستوى من الكثرة والإطالة.

الثاني: التأثر بشعراء الصوفية في غزلهم الالهي. ووجدهم الصوفي، فانه تربى وأخذ عن كثير من مشايخ الصوفية ومدحهم مدائح كثيرة، ورثى من مات منهم في حياته[٣٦] منهم في سبيل المثال لا الحصر: (محمد بن أبي بكر الحكمي، ومحمد بن الحسين البجلي وأولادهما، ومحمد بن عبد الله الهرملي ومحمد بن الرهيب، وعلي بن الحسين البجلي، واحمد بن موسى بن عجيل)، لكن ما يضعف هذا الأمر البون الشاسع بين غزل ابن حمير والغزل الصوفي ثم إنا نجد ان ابن حمير عزف عن المقدمة الغزلية في قصائده الثلاث التي مدح بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقل أن نجد ذلك عند شعراء المتصوفة ومن تأثر بهم، إذ تمثل لهم مقدمة قصيدة المديح النبوي مجالا خصبا للغزل العفيف[٣٧] بل الحسي أحيانا[٣٨].

ثانياً: وصف الاطلال وديار الأحبة:

لم يهتم ابن حمير بالمقدمة الطللية كاهتمامه بالمقدمة الغزلية، فهي وان كانت تحظى بالنصيب الأوفر والحضور الأكبر في صدر القصيدة العربية في العصر الجاهلي والعصر الأموي، فانها في شعر ابن حمير تأتي في المرتبة الثانية بعد الغزل بمسافة بعيدة، ومجموع القصائد التي صدرها بالحديث عن الاطلال وديار الحبيبة (١٣) قصيدة.

وابن حمير في حديثه عن الاطلال وديار الاحبة يلتزم محورين مع ورود الحديث عن ذلك ضمن مقدمات أخر :-

المحور الأول :

ذكر الديار وسؤالها أو السؤال عنها والدعاء لها بالسقيا، والحياة والخصب وهي في هذا المحور تأخذ منحى ايجابياً فهي ليست اطلالاً بالية أو رسوماً دارسة، ولكنها تنعم بالحياة وتعج بالحركة.

www.dorat-ghawas.com

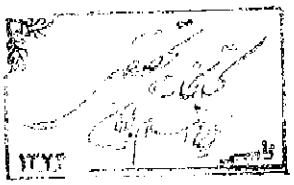

المحور الثاني:-

الوقوف بها وبكاؤها، مع تذكر أيامه الخوالي فيها. وكأنه بذلك يبكي ايام شبابه التي ولت، وذهب بذهابها لذة الحياة ومتعتها. وهي هنا في طيات البلى فمعالمها دارسة، وديارها أطلال ظعن عنها أهلوها، وتحولوا الى ديار أخرى.

والعامل في الأمرين هو الحالة النفسية التي توجه السلوك وتصبغ المقدمة بصباغها من أمل تبتسم معه كلمات الشاعر ويشع الرجاء والتفاؤل بين احرفها. كما هما مشعان في جنبات الشاعر، أو من قلق واضطراب ويأس تستحيل معه حياة الشاعر لا شعره وحده قلوباً حزينة كئيبة وعيونا باكية.

وشاعرنا في مقدمته الطللية لا يجري على سنن الاقدمين الا في الخطوط أو القوالب الرئيسة.. فهو وان استعار منهم بعض الصور، والالفاظ والاصطلاحات وهو إن كان قد جارى طائفة منهم في الانتقال من وصف الديار الى وصف صاحبتها، إلا أننا نجد لديه تميزاً واستقلالاً، وبعداً عن التقليد. فلا نجده يصف الاطلال الدوارس كثيراً ولا يعطيها الصورة الكاملة التي اعطاها اياها السابقون فلا يشير الى ما غيرها من حوادث الايام ومرور السنين المتعاقبة،ولا الى ما عفا آثارها من أمطار ورياح عاصفة، ولا يشبهها في دثورها بالسطور البالية، ولا يشير الى ماسكنها بعدهم من غزلان ونعام وأرام وغيرها من الحيوانات والهوام، ولا يتحدث عن آثارهم الباقية من نؤي واثاف ورماد. وهو قليلا ما يحدد مواقعها. كما أنه لم يعر الغراب اهتماما ولم يعطه الدور الذي اعطاه اياه السابقون - خاصة الأمويين - ومما تميز به ايضا انه يوجز الحديث عن الديار ويطيل الحديث عن الاثر الذي تركته في النفس.

ولأن شاعرنا لم يعرف حياة البداوة، لذلك تخففت مقدماته الطللية من كثير من عناصر البداوة وفقدت الوانها وروائحها القديمة بشيحها وقيصومها وعرارها وحوذانها وبشامها. كما ان الديار ليست عنده دائما اطلالاً بليت، ومنازل درست وعفت آثارها، فلا يكاد يستبينها كما هو حالها مع القدامى، بل كثيراً ما نجده يتحدث عنها عامرة تحفها الخضرة، ويدعو لها بالسقيا ويلح في ذلك على نحو يثير اهتمام المتلقي. وفي ذلك ما يوحي أن الشاعر لم يكن مقلدا متبعا محضا، فهو وان استغل الشكل القديم للمقدمة الطللية، لكنه أكثر تحررا من التقليد منه في مقدماته الغزلية. لذلك نراها مرتبطة ببيئته موصولة بها نابعة منها.

واول ما نختاره له مقدمة قصيدةلامية في مديح ابي بكر بن سهيل:-

ألا هل الى أهل الغوير سبيل
وهل في ظلال بالغوير مقيل
لقد طال ما بين الطلول توقفي
وموقف مثلي في الطلول طويل
وعنفني سعد خليلي في الهوى
ولم يدر أني للهوى لخليل
وكم بين من أمسى خليا فؤاده
ومن غالبه يوم التفرق غول
كفى حزنا لبثي باكثبة الغضا
وقد حدثت من ساكنيه حمول
أداوي بمعتل النسيم حشاشتي
وجسمي عليل والنسيم عليل
وأهتف بالبين المشتت بيننا
اقلني فرب العالمين يقيل [٣]

واضح أن الشاعر لم يحتفظ بشيء ذي بال من التقاليد الجاهلية المألوفة في وصف الاطلال التي سلفت الاشارة اليها. وان كنا لا نعدم بعض الآثار الغزلية الأموية ابتداء بتمنيه التمكن من قضاء بعض الوقت في ديار الأحبة. ولم يفته ان يستخدم أداة الاستفتاح (ألا) المفضلة لديهم في مثل هذا الموطن[٣] على كراهة البلاغيين الابتداء بها. لقد ركزت الأبيات على الأثر النفسي الذي ألقته الأطلال (ذكراها - ومرآها) على الشاعر، الامر الذي جعله يطيل الوقوف ويرفض الانصياع لصديقه (سعد) الذي حاول أن يثنيه عن التعلق بتلك الأطلال التي ترحل عنها أهلوها، ويوحي الفعل (عنف) بآخر مراحل محاولة الصد. التي قد سبقت بمحاولات تدرج فيها صاحبه، لكنه على رغم ذلك يرى نفسه المصيب، وصديقه على غير الجادة. فهو بذلك يداوي علته. وتبدو في هذه المقدمة للصديق وظيفة جديدة غير

www.dorat-ghawas.com

الوظيفة التي عهدناها له عند الشعراء القدماء الذين كانوا يستوقفونه، ويطلبون مساعدته ومواساته.

وتشخيص البين في البيت الأخير، والتوسل اليه بأن يقيلهما ويدعهما يلتقيان، وترغيبه في ذلك بتذكيره بأن ذلك من الأعمال التي يحبها الله، ويكافئ من يصنع ذلك بإقالة عثرته، شيء جميل جاد به خيال الشاعر متأثراً بمرأى اطلال أحبائه.

وطول الوقوف على الاطلال دأب الشاعر وديدنه، في واقعه، وان لم يطل الوقوف معه في مقدماته ذلك ما تنبئنا به مقدمة قصيدة اخرى قالها يمدح الشيخ راشد بن مظفر السنحاني قال فيها :-

قف بالحصيب على رسوم معاني
شأن الوقوف بها يطول وشاني
وإذا حننت الى الجريب ورادع
ودع الحنين لأبرق الحنان
أوطان لهو ما تزال ربوعها
يسلو الغريب بها عن الأوطان
ومعاهد عهدي وفي عرصاتها
مهوى الهوى وتغازل الغزلان
حيث المباسم والخدود ضواحك
عن أبيض يقق وأحمر قان
بل حيث رمان النهود يقله
بان القدود وحبذا من بان
غيد إذا عرضن يسحبن الملا
خطرت لك القضبان في الكثبان
لا تعجبن لعزهم وتذللي
لو شاء من أغناهم أغناني
يا ساكني وادي الجريب ومعضب
أفديه من واد ومن سكان
لا تسمعوا الواشي عليّ فانني
لا أرعوي فيها لمن يلحاني
وحذار أن تنسوا قديم مودتي
إني لأذكر كل من ينساني

فسقى الحصيب وقاطنيه وكثبه
والأثل منه كل أسحم دان[٤٥]

الديار هنا ليست دارسة بل هي قائمة عامرة (أوطان لهو ما تزال ربوعها ...)،(أفديه من واد ومن سكان)، ولذلك دعا لها بالسقيا، و(الحصيب والجريب، ورادع، ومعضب) مناطق متباينة ليست منطقة واحدة، ولكن يبدو ان الرابط بينها في نفس الشاعر وذهنه، كونها مواطن لهوه وصبابته، وله فيها ذكريات حبيبة الى نفسه، وظاهر أن نفس الشاعر أهدأ منها في المقدمة السابقة، فهو غير كئيب، وجسمه غير عليل، ولم يفله القول، بل نراه مستمتعا بسرد أوصاف صور محبوباته. وذكر مفاتنهن على نحو لا نجده عند شعراء الغزل العذري. وما يؤرقه هنا هو خوفه من أن ينساه أحبته بفعل الوشاة.وهو المعنى الذي تكرر معنا في مقدمته الغزلية. ومن المظاهر التي وردت عند السابقين في هذه المقدمة، وتتكرر في مقدماته كثيراً - لاسيما الطللية - الدعاء لديار الأحبة بالسقيا، من نماذج ذلك ما نجده في مقدمته الطللية التي صدر بها ميميته في مدح الشيخ ناصر الدين سهيل الزني، والتي يقول فيها :-

أديار أميمة بالعلم
والى سكان زرود عمي
وسقاك الدلو مرزمة
والسماك بواكفه الديم
فلكم قد كسوت ضبني حلي
ولكم قد شفيت من السقم
ولكم قد عهدتك مرتبعا
للحسان العقايل من جشم[٤٦]

ولأن الشاعر كثير الاسفار دائم الترحال كما قال عن نفسه:

وما أنا إلا ابن المراحل والسرى
فليس بمقبوض على عناني[٤٧]

لذلك قد تعددت لديه ديار الأحبة واطلالها فهي ليست موطنا واحداً، كما هو الحال عند الشعراء الأقدمين كما رأينا في (الحصيب، والجريب، ورادع، ومعضب) في أبيات سابقة[٤٧].

ويعيد الشاعر ما بدأه الشاعر العذري الأموي مقرراً أن حليفه

www.dorat-ghawas.com

الى الديار، وبكاها وسؤاله اياها انما المعني بذلك هم ساكنوها ذلك ما نسمعه منه في مقدمة قصيدة قالها يمدح الفضل بن مظفر السنحاني جاء فيها:

هل المنازل تنبي حال اهليها
أم الديار تحيي من يحييها
لما تنكرن في عيني معارفها
ظلت دموعي تجري في مجاريها
وما المنازل لولا حب نازلها
ولا المساكن لولا حب من فيها
يا دار عزة والدنيا مفرقة
بل الرسوم تنادي من يناديها
أين التي كان يعييني العتاب لها
على الجفاء وحمل البرد يعييها[٢٤]

وقد نجد الشاعر يثوب احيانا الى رشده، ويلوم نفسه على غيهاني وقوفها بالأطلال وسؤاله اياها عن احبته يقول في احدى مقدماته الطللية:

مالي وللطل الدريس المحل
بين الأراك الى الكثيب الافضل
وعلام أعبر بالمنازل سائلا
أطلالها عن علم ذاك النزل[٢٥]

ولعل هذه قناعة متأصلة في نفس الشاعر، وليست موقفا انيا. فان صح ظننا هذا فلعل ذلك هو سبب قلة مقدماته الطللية بالنسبة للغزلية، مقارنه بالشعراء القدماء. وقد يكون ذلك أيضا هو سبب ايجاز الشاعر الحديث عن الأطلال الصماء البكماء، وانصرافه الى الحديث عن الآثار التي خلفتها تلك الأطلال في نفسه.

ثالثا: الظعن

يحتل وصف الظعن ورحيل الأحبة المرتبة الثالثة في مقدمات قصائد محمد بن حمير ومجموع القصائد التي صدرت بذلك (١٢) قصيدة، منها اثنتان تتحدثان عن رحلة عكسية للأحبة، أي عودتهم بعد طول غياب، وتنعمه بلقياهم.

وابن حمير في تصويره للظعن كثيرا ما يصدر عن خصوصية نفسية بعد بها الزمان عن التقليد المحض للقدماء في وصفهم للظعن، فقد أغفل كثيراً من مقومات الوصف التقليدي للظعن. وتخفف من تفاصيل ذلك كثيرا، فلم يصور لنا شيئا من الهوادج والثياب التي تكللها، والوانها على نحو ما كان الشعراء يصنعون، ولم يصور لنا تفاصيل مشاهد التحمل والارتحال وما فيها من التفصيلات الصحراوية، ولم يأبه بالمظاهر البدوية في وصف الرحيل، بل عمد كثيرا الى الاهتمام بالمعاني التي يثيرها الارتحال ويهيجها في النفوس، وما يخلف فيها من الأسى والحسرة والحزن والالم، عدا المقدمتين اللتين تصفان عودة الأحباب. فانهما تشعان بالأمل والاشراق النفسي البهيج الذي يسري الى اجزاء الطبيعة من حوله. لكن ابن حمير لم يغفل الحادي، ولم يهمل دوره، كما أنه أكثر من ذكر الغور والنجد. ذلك ان الظاعنين اما مغورون أو منجدون. واكثر مقدمة يظهر فيها ابن حمير مقتربا من نهج القدمين، اضافة الى حديثه الذاتي عن نفسه واثر ظعن الأحبة فيها هي تلك التي تتصدر داليته في مدح الشيخ سيف الدين محمد بن زكري الحدقي وهي قوله:

لمن الهوادج والقلاص الوخد
ولمن يرى تلك الخواتم واليد
بكروا بليلى والركائب ترتمي
تحت الهوادج والحداة تغرد
أومت من السجف المنيع بأنمل
من لين ملمسها تحل وتعقد
وتنسمت فاذا العنبر فائح
وتبسمت فاذا الاقاح مبدد
غورية لاح الوميض لاهلها
فتذكروا نجد الحجاز وانجدوا
اتبعتهم نظر المريب ومقلة
تهمي النجيع وزفرة تتصعد
ودعوت يارب القباب بحق من
يدني اليّ مزاركم لا تبعدوا[٢٦]

فقد ألم الشاعر ببعض عناصر رسوم الظعن: فذكر الهوادج، والقلاص الوخد ترتمي تحت الهوادج من شدة سيرها. بفعل

www.dorat-ghawas.com

تغريد الحداة، وذكر سجف الهودج وحبيبته التي تومئ من خلاله بأناملها الرقيقة الناعمة. وهذا في مجمله من اجزاء لوحة الظعن عند الجاهليين بينما الصورة في قوله : (اتبعتهم نظر المريب ....) البيت أموية عذرية.

وهذا التفصيل على الرغم من كونه لم يستكمل أجزاء لوحة الظعن التي نلقاها عند القدامى، لكنها نادرة الوجود عنده، فما يستهويه ليس الحديث عن الأحداج وظعنها، ولا الهوادج والثياب التي تكللها، ولا الحداة وتغريدهم، ولا مشاهد الصحراء والأودية التي يمر بها الظعن. إنه ينشغل عن ذلك كله بذكر مأساته. والحديث عن اسفه وبكاء. إنه لا يصف الأحبة كمشاهد من خارج المسرح، وكأن الأمر لا يعنيه. إنه يصف حاله بعد سفر أحبته. ويسطر لنا بعض أجزاء نفسه الممزقة وذاتيته المولهة. اسمعه يقول في مقدمة قصيدة يمدح بها الفقيه محمد بن الحسين البجلي والشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي.

دعه وذكر النازحين الى الحمى

واتركه يبكي بعد رحلتهم دما

هم فارقوه فأرقوه فإن شكا

وبكى فللمجروح أن يتألما

بكرت كتائبهم فأبكر قلبه

في الحي يتلو الركب حيث تيمما

ان ينجدوا ينجد وراء مطيهم

أو يتهموا قصد الغوير فأتهما

يا سعد هل عن آل مية مخبر

فعساك تشعب ذا الفؤاد المغرما

حدث وزد حدث علي بذكرهم

فربما خبر به تروي الظما

ولقد أسفت لبينهم ولبعدهم

ولقد ندمت وحق لي أن أندما

ومن العقائل في حدوج مطيهم

شمس يقبل نعلها بدر السما

ومنيرة الخدين أظلم شعرها

والحسن يقتل إن أنار وأظلما

لو عاد لي الزمن القديم على الغضا

ما هم جفني بالدموع ولا هما

لو لم تسر أظعان مية لم أبح

يوما ولم أفتح بقافية فما

يا قلب لا تأسف على خل جفا

فلربما قرب البعيد وربما [٢٦]

فهذه الابيات مقدمة ظعنية تحدث فيها الشاعر عن رحيل أحبته، لكنه لم يعر فيها تفاصيل القدامى اهتماما. بل اتجه الى ذاته يفرغ بعض ما فيها من مراجل تغلي، لذلك جاءت شاهدا ناطقا بما لا مزيد عليه من حالة الشاعر البائسة اليائسة الناتجة عن ظعن احبته وفراقهم اياد، فارقوه وابكوه، وساروا بقلبه فبقي ذاهلا بغير لب.

نفسية الشاعر المفارقة الحزينة التي رأيناها في هذه الابيات نجد مثلها أو قريبا منها في (١٠٠) من مقدماته. فلم يسطر لنا الشاعر تنعمه بلقاء احبته الظاعنين سوى مرتين: الأولى هي قوله في مقدمة قصيدة قالها يمدح من أسماه سيف الدين:

طرق النسيم بشيحه وبرنده

مستعبقا وبمسكه وبنده

وتحدرت مقل السحاب على الربا

وتبسمت أزهاره في ورده

يا مرحبا بالقادمين فإنهم

أربى على قرب المزار وبعده

وكفى بدمعي واشيا فلطالما

أبدى الولوع بهم وإن لم أبده

تجري على خدي دما فكأنما

أعداه جؤذرهم بجمرة خده

رشأ يقوم في الثياب مثقفا

من قده وسنانه من نهده

متبسما عن لؤلؤ في مبسم

قد أحرق القلب المشوق ببرده

وكأنما في عقده في ثغره

وكأنما في ثغره في عقده

www.dorat-ghawas.com

سمح الزمان برد عصر المنحنى

ولكم حننت من الغرام برده

اليوم ابلغني اللقاء مطالبي

منهم، وأنجز لي الزمان بوعده

يا فرحة الدنيا فان سرورها

طلعت طوالعه كسالف عهده

سجم الغمام على الوعيرة نيله

وانهل في غور البلاد ونجده[٣٢]

هكذا هي نفسية الشاعر إذا حزنت رأت الدنيا كلها حزينة كئيبة واذا غمرها السرور خيل اليها ان الكائنات من حولها ترقص طربا وتنعم بالسعادة والحبور: طرق النسيم وتحدرت مقل السحاب وتبسمت ازهارد يا فرحة الدنيا سجم الغمام وهذا ما نجده في المقدمة الثانية التي تحكي عودة أحبابه الظاعنين والتي منها قوله:

أسمعت عن حادي الركائب إذ حدا

أأغار يوم محجر أم أنجدا

ورأيت برق القبلتين وقد سرى

وسمعت ورق البانتين وقد شدا

هم بشروني أن ليلى عاودت

أوطانها والأنس عاد كما بدا

وحكوا بأن الشعب عاود سلسلا

بوروده ففديت ذاك المورد

أهلا بركب العامرية قادما

فلقد بردت لقائه بل الصدا

قد كنت بعد رحيلهم متوحشا

فاليوم أخطر في المعاهد منشدا[٣٣]

لقد عرف الشاعر عودتها من خلال سريان البرق وشدو الورق على البانتين وماء الشعب الذي عاود جريانه سلسالا بعد طول انقطاع، فكل هذه الاشياء تمت ابتهاجا بعودتها، وليس هذا فحسب، بل لقد بدأ الشاعر يسرد مظاهر سرور أجزاء الطبيعة من حوله بعودتها، قبل أن يتحدث عن اثر ذلك على نفسه، في هذه الأبيات والأبيات السابقة، الأمر الذي يوحي بسيطرة هذا الاحساس على الشاعر وتغلغله في عقله الباطن، أو لعل الشاعر يحاول ان يصل بالمتلقي الى مقاربة ادراك أثر ذلك في نفسه من خلال ذلك التهويم، وأيا كان ذلك الأمر، فان مقدمات وصف الظعن من اقوى مقدمات الشاعر ابن حمير صدق مشاعر، وطغيان عاطفة، والشاعر فيها أكثر ابداعا، لذلك، تقابلنا فيها صور جميلة ومؤثرة من ذلك في سبيل المثال قوله في بعض مقدماته:

كأن أيدي مطاياهم وقد حديت

تطا على حر وجهي أو على كبدي[٣٤]

يا ليتهم حبسوا المطي ولو على

بصري ولا تفلى بهم عرض الفلا[٣٥]

وقلت يا ركب ليلى هاكم كبدي

رهنا بمرد مطاياكم فما فعلوا

كم ذا اقبل أيدي العيس من كلف

للظاعنين وماذا تنفع القبل[٣٦]

ومن العقائل في حدوج مطيهم

شمس يقبل نعلها بدر السما

ومنيرة الخدين أظلم شعرها

والجسن يقتل ان أنار واظلما[٣٧]

رابعا: مقدمة وصف الطيف:

أشرنا مرارا الى ان ابن حمير في كثير من مقدماته يطغى عليه طابع الحزن لفراق أحبته ونأيهم عنه، وانه دائم البكاء والذكرى لماضيه الجميل مع أحبته، فشيء طبيعي أن يكون لطيف الأحبة نصيب غير قليل من الذكر، وقد كان ذلك فعلا، لكن ذلك ياتي على سبيل الايجاز ويأتي متفرقا في ثنايا المقدمات فلم يستقل وصف الطيف إلا بمقدمتين اثنتين من مقدماته: الاولى قوله من قصيدة قالها يمدح العز بن داود:

سرى طيف سعدى بعدما هطل الندى

وكاد قوام الليل ان يتأودا

وهب الصبا النجدي يحمل برده

حذارا أذا ما ماس أن يتقصدا

www.dorat-ghawas.com

عجبت له كيف اهتداني بحندس

لو ان هلال الأفق يسـريه ما اهتدى

ألم فاهدى لي المنام سلامه

ولو لم يزر مابـت الا مسـهدا

فارشفني ثغرا ولاصقني حشا

وافرشـني شـعرا وأوسـدني يدا

فبت أهز الغصن أهيف ما يسأ

وعدت أضم الظبي أحـور أغيدا

ومن ريقه راحي ومن در ثغره

اقبـل فوق الخد زهراً مبـددا

له الله طيفاً ما أبر مع الكرى

وأكثر اسـعادا وما كان مسـعدا

تعلم من أجفانه جسمي الضنى

واصلح مني ما اراد وافسـدا

ولائمة لي فيه لو بصرت به

لكانـت فـداء لـي وكنـت لـه فـدى

يحاول ارشادي فإن لحاظه

لتأمرني أن لا أطاوع مرشـدا

ويسألني عن شعره وحبينه

فقـلت رأيت الحسـن أبـيض أسـودا[58]

أجاد الشاعر في وصف مسرى الطيف في الأبيات الأربعة الأول، على الرغم من كونه مقلداً في تفاصيل ذلك على نحو يقل عنده لكنه استطاع ان يخلع عليه من نفسه انفاساً ومن روحه أرواحاً ويطعمه بصور جميلة مثل حذاراً اذا ما ماس أن يتقصدا .... لو ان هلال الأفق يسريه ما اهتدى.

والأبيات الباقية تذكر ما اهداه له الطيف وما تم بينهما، وهي ربما، توحي بنهم الشاعر وشراهة نفسه، التي خفيت علينا كثيراً، لكنها افلتت منه هنا، وظهرت في ثوب الطيف.

وتتكرر اللوحة تقريباً بمشهديها السابقين في المقدمة الثانية حيث يقول:

يذكرني بالغور ما لست أنساه

نسـيم سـرى أحبـب الي بمسـراه

وطيف للـيلى العامريـة زارنـي

واسـفله الوعسـاء والبـان اعلاه

هوى من غضا نجد وبالغور مسكني

وإني لأهواه على بـعد مهواه

فقابلته بالرحب من كل جانب

وحـيته في حـين لاح محياه

وأفرشني فوق الوسائد شعره

عناقـيد فينانا وأرشـفني فاه

وشبهته بدراً وما البدر مثله

وظبـيا لأن عيناه تشبـه عيناه[59]

وأمسيت أشكو البين وهو مضاجعي

ويشكو وقـد ضمت بأحشـاي أحشاد

إذا ضل طرفي في حنادس شعره

هداني اليه بـارق من ثناياه[60]

فالأربعة الأبيات الأول تتحدث عن زيارة طيف ليلى له وما ذكره ذلك ومن أين أتى وكيف قابله والأبيات الأخر تصف ما تم بينهما بعد اللقاء بشيء من الحسية والوضوح أيضا.

حديث ابن حمير عن الطيف في المواطن الأخر يأخذ طابع الإيجاز والاقتضاب كما ذكرنا سالفا وهو يأتي على انماط ثلاثة:.

الأول: يتحدث فيه عن زيارة الطيف له، ومدى غبطته بذلك أو مدى ما يسبب له ذلك من أرق لما يأتي معه من ذكريات[61]

الثاني: وفيه يتحدث عن صدودها وجفائها، وبخلها بزيارة طيفها، ومنعها ذلك عنه[62]

الثالث: وفيه نلمس توقع الشاعر مجيء طيفها زائرا له، أو رجاءه ذلك، أو تمنيه حصول ذلك[63]

خامساً: شكوى الشيب وبكاء الشباب:

عاش ابن حمير حتى اجتاز الثمانين من عمره، فكان من المتوقع ان يحظى شكوى الشيب وبكاء الشباب من مقدماته بنصيب غير قليل، لكن الواقع الذي يحكيه ديوانه الذي بين ايدينا غير ذلك، فليس فيه سوى مقدمة واحدة كان محورها بكاء الشباب، وما عدا ذلك فاشارات يسيرة متفرقة في مقدمات القصائد، وذلك إما لأن مقدماته التي صاغها في ذلك قد طواها

www.dorat-ghawas.com

الزمن وابتلعها الضياع، واما لأن طبيعة الشاعر الظرفة اللاهية لا ترى في الشيب مانعا من الاستمرار في العب من الشهوات. ولعل هذا هو السبب الراجح، نستشف ذلك من قوله:

قالوا المشيب وقار قلت طيشني

الى العقـــــــار وذات الدل والحوم

والطير يبكر إذا خيط الصباح بدا

لرزقـــــــها وأنا للكأس والنغم[٢٥]

فاذا كان المشـــيب مظنة الوقـــار، وداعية الى كســـر اعواد اللهو فانه عنده من عوامل زيادة الطيش واذا كان ظهور الصباح بضوئه والفجر بنوره ايذانا للطير أن تبكر وتجد وتبدأ نشاطها فإن الشيب ايذان له بمضاعفة جهده وزيادة اغراقه في اللذات، فإن لامه لائم أو زجره وناهد أجابه قائلا:

ولو اراد متابي ما ذرى وبرى

لابـــــــنة الكرم يتلوها ذو الكرم[٢٦]

وان سمعهم يقولون:

شاب ابن حمير وهو رب قصائد

عـــرب كواعـــب مثلهـــا لا ينظـــم[٢٧]

كان جوابه:

ماذا يضر الباز شهبة لونه

وبما ترى افتخر الغراب الأسحـــــــم

وان عيرته الغواني رد عليهن ذلك متسائلا منكرا:

ما انكرت من حلول الشيب عاذلتي

والفجر لا عيب فيه حـــــين ينفجر

لولا البياض الذي حول السواد لما

زان النواظر تدعيج ولا حـــــــور

وما على الباز مبيض قوادمه

وليس يبرح مخضوبـــــــا له ظفر

والراح تسلب أن طال الثوي بها

لب الرجال ولا يزري بـــــها الكبر[٢٨]

وما استزدت بشيب الرأس منقصة

فالبـــــاز مخلبـــــه يدمي مع الهرم[٢٩]

فهو باز قوي لا يعرف ضعف الشيخوخة بل يزداد بها قوة.

وعنيد يرفض الاعتراف بكون الشيب وبياض الشعر عيبا أو منقصة :-

رأتني ليلى والبياض بعارضي

فصدت وانكار الشبـــــــاب عجيب

وهـــل هـــو إلا لونها صبغت بـه

ذوائب رأســـــــي والفؤاد يذوب[٣٠]

فلماذا تصد ولماذا تعرض إذن ؟؟

لعل في ذلك ما يقوي صحة ما ذهبنا اليه من طبيعة النظرة السائدة للشيب عند ابن حمير، ولكن هل كانت تلك قناعة أكيدة لدى الشاعر شدّ بها عن بني البشر الذين يرون في الشيب ضعفا، وهو ما قرره رب البشر حين قال سبحانه وتعالى: ((الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة. ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة)) [٣١] ذلك ما قد توحي به الأبيات السابقة، غير أننا نجده أحيانا يشكو ضعفه وشيخوخته، ويبكي شبابه من ذلك مقدمته الوحيدة التي خصصها للحديث عن الشيب والشباب وهي :-

غيري تغيره الفتاة العيطل

ويشوقـــــه الغادون حـــــيث تحملوا

وسواي يشجيه الحمام إذا شدا

وتهيج لوعته الصبـــــا والشـــــمال

لكنني أبكي على زمن مضى

بالرقـــــــمتين فدمع عيني يهمل

ايام ما كان الشباب غرانقا

بـــوصال من أهوى وســـعدي مقبـــل

أقصرت عن غي الشباب وكان لي

فيه الترســـــل والعتاب المرســـــل

ولكم جريت مع الصبا جري الصبا

وسقـــاني الصهبـــاء احـــور اكحـــل[٣٢]

وأصرح من تلك الصورة في بكاء الشباب وشكوى الشيب وأوضح نجده في ثنايا مقدمة اخرى يقول في الأبيات (١٠، ١١، ١٢) منها :-

ما اتعب الشيخ الكبير ولوعه

وتعاف صحبـــــــته الفتاة الناهد

www.dorat-ghawas.com

ان قال اني مغرم بك شيق

قـــــالت له حاشـــــاك انك والد

وتعود تضحك وهو يبكي مغرما

ان المشـــيب مع الشبـــاب لكاســـد [٢٢]

فهذه الابيات تصور عظيم حسرته. وتسطر حزنه وكآبته من الشيب. ذلك الضيف الثقيل. بل العبء الذي أنقض ظهره، وطرد عنه الغواني وأحاله الى متاع كاسد. وأسمال بالية، كما تشير الى بكائه شبابه حصنه في اللذات وشركه الذي كان يصيد به الغواني.

غير تلك المقدمات التي سلفت هناك أربع مقدمات أخر جديدة ثلاث منها تتسم بشيء من التقارب في مدلولها النفسي اذ توحي بنفسية شاكية تلجأ الى شيء من الزهد والحكمة لغرض الاقناع والامتاع معا. كل ذلك مع تمير كل واحدة منها بنفس خاص بها. يجعلها مستقلة في بابها.

المقدمة الأولى :-

تتكون من خليط متجانس. عناصره ب[illegible]ة الذاهبين. والتحسر على الشباب الفائت. والزهد والحكمة. المتزجة بالفخر بالنفس. وهي مقدمة قصيدة قالها في مدح بعض العرب ومنها :-

لمن الخيام بذي رقم

كانت تصاف وترتبع

ولمن ترى تلك الخيا

م المشرفات على القزع

صنع الزمان بأهلها

بعد التألف ما صنع

فاليوم طرفي ما رأى

اطلالها إلا دمع

ولقد جزعت على العدا

ة فما أفادني الجزع

ووددت لو رجع الشبا

ب وفات لا يرتجع

مالي وأوطان الخمو

ل وفي البسيطة متسع

وعلام اقنع بالقلي

ل أبا لنفاثة يقتنع

ان المقام على الهوا

ن مشورة لا تستمع

وأنا سليك القفر لا

أرضى بذل المضطجع

ولي القصائد والشوا

رد والشوائع والشيع

ان النبي بمكة

انف الاقامة فانتجع [٢٣]

هذه المقدمة فريدة في مقدمات ابن حمير

فريدة في وزنها فهي الوحيدة من بين مقدماته الـ(١١٦) التي جاءت على وزن مجزوء. ثم ان لها تميزا ايضا في طبيعة قافيتها المقيدة فاختياره للقافية واختياره لحرف الروي العين ذي القوة المتوسطة. كل ذلك لا يخلو من مدلولات تصبغ معانيها. وتميزها عن غيرها من المقدمات. ان الشاعر في هذه المقدمة يعيش في صراع مع نفسه ومع الحياة ونواميسها. فبينا نراه يخيم عليه الحزن والكآبة وكأننا نحس انفاسه تتلاحق وهو ينشدها تخنقه العبرة من تذكر الراحلين من ساكني خيام ذي قزع. يدفعه ذلك الى الإحساس بأنه الى ذلك المصير سائر فيعلن جزعه، وحسرته على فوات الشباب. اذا به سريعا ما يثوب الى طبعه المكابر المعاند الذي لا يعرف الاستسلام، والانهزام أمام الأحداث. محاولا التمرد على تأثير تلك اللوحات والمناظر التي دقت عليه ناقوس الخطر، وذكرته بالرحيل المحتوم.

المقدمة الثانية :-

يعلن فيها الشاعر تأوهه وشكواه. ويفخر فيها بصبره وتحمله، وهي مقدمة لقصيدة قالها في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم - والاستغاثة به من شدة اصابته. ومنها :-

يامن لعين قد اضر بها السهر

واضالع حدب طوين على الشرر

www.dorat-ghawas.com

وفؤاد مصدوع الفؤاد مروع

ضل الطريق فلا أمان ولا مفر

يمسي سمير النجم في غسق الدجى

وكذاك يضحي في الصباح إذا سفر

حذر التي كانت قبيل وقوعها

فيه وهل حذر يفيد من القدر

أمسى بمنزلة الغريق تلاطمت

حوليه أمواج الخضم وقد زخر

ونوائبا لو أن أيوبا بها

يبلى وقد كان الصبور لما صبر

يا رب إن تك لي ذنوبك فاغتفر

وأقل فمثلك من أقال ومن عثر

يارب لا أقوى على كل الذي

القى ولطفك خير لطف ينتظر

قد قلت أن العسر يتبع ضيقه

يسر فما بالي أساء ولا أسر

لم يبق من جسمي سوى شبح يرى

كالوهم لا يستطيع يحصره النظر

وحشاشة فنيت ومنها فضلة

بقيت مقلبة على شوك الابر [٧٤]

وهي مقدمة طويلة تمتد الى ١٨ بيتا.

المقدمة الثالثة :-

يتوسل فيها الى اهل الحمى ان يصلوا رحمه، مبينا لهم قرابته ونصحه لهم وصادق حبه ووفائه الخالص. وهي مقدمة لقصيدة مدح بها الشيخ أبا بكر بن سهيل الزني وهي :-

ادعوكم ومدامعي تتحدر

وبأضلعي جمر الأسى يتسعر

وأقول يا أهل الحمى أعلا الحمى

لا تنكروني ما المعارف تنكر

أو ليس داركم وداري بالحمى

ولنا مقيل لا يذم ومسمر

وانا أخوكم بالصحيح وفرعنا

فرع وعنصرنا كذلك عنصر

من لحمكم لحمي ومن دمكم دمي

وعلى محبتكم أموت وأحشر

ما إن جفوتكم فلم تجفوني

ما إن هجرتكم فلم أنا أهجر

والكف ليس الزند ينكر قربه

والعين لا يقسو عليها المحجر

والله رب العرش مطلع على

أني لصفو الود فيكم مضمر

وإذا تغير كل صاحب صحبة

فأنا الذي والله لا اتغير [٧٥]

المقدمة الاخيرة :-

وهي أقصر مقدمة تواجهنا في ديوانه، وتتسم بأنها من الصق المقدمات بغرض القصيدة ومن أكثرها ارتباطا به . وموضوع القصيدة تحريض من الشاعر للملك المنصور على القيل عمار بن السبائي الذي كان مطيعا للملك المنصور، لكنه كان ممتنعا على حصونه وأملاكه، ومقدمة القصيدة هي :-

ما شاق قلبي أحدج وأكوار

ولا شجتني أعلام وآثار

ولا أسائل أهل النجد إن نجدوا

ولا أسائل أهل الغور أن غاروا

قد يزأر الذئب إذ لا حوله أسد

ويصهل العير إن لم يلق أخطار [٧٦]

فالشاعر يلمح في هذه المقدمة أن أمراً عظيماً يقلقه ويقض مضجعه، ذلك الأمر ليس هجر أحباب ولا بكاء اطلال، ولا ظعن خلان، لكن الذي أقلقه وأهمه، هو خوفه على سلطان الملك المنصور وملكه، من تربص السلطان عمار ومكره، وتحينه الغرات للانقضاض على الملك ومملكته :-

سررت باليمن الميمون حين صفت

لابن الرسول فما في تلك أكدار

www.dorat-ghawas.com

وكان فيها عضاريط زعانفة

فما بقـــي من بـــني البـــظراء ديار

لكن بقي فرد تؤلول يعاب به

والنار يســـــهل مركوبـــــا ولا العار

إن قلت لم يبق سلطان سوى عمر

قـــالوا بـــلى وبقـــي الســـلطان عمار

ثم اتجه الى التحريض الصريح :-

فخذ يميناً ولا تقبل معاذره

فالكلب حـــيث خلا بـــالعظم جبـــار

لم يتفق قط سلطانان في بلد

هل يدخل الغمد بـــــتار وبـــــتار

كانت تلك هي المقدمات التي سادت قصائد ابن حمير، وقد استعار ابن حمير شكلها في الغالب من القدامى - كما أسلفنا - ثم حـــور فيها وصب فيها قوالبـــه الخاصة، كما أنه حـــذف وتخفف وفرع واضاف وجدد، وظهرت ذاته وشخصيته في شعره على نحو واضح.

أما المقـدمة الخمرية فلم يتأثر ابـن حمير فيها بـــالجاهليين كعمرو بـــــن كلثوم أو طرفة ولا بـــــالامويين كالأخطل، ولا بالعباســـيين كأبـــي نواس، فانا وان كنا نجد لها ذكرا ولمجالســـها وسقاتها حـديثا في مواطن مختلفة من مقـدماته، لكنها لم تحظ بمقدمة مستقلة واحدة، بـل يأتي الحديث عنها موجزا مقتضبا في ثنايا المقـدمات الأخر[٣٧] كذلك لم يهتم ابـــن حمير بـــوصف رحـــلاته، والوهاد التي يقـطعها والبـيد التي يجتازها، وان كان يفتخر كثيراً بكثرة اسفاره، لكنه فخر مجرد وموجز أيضا[٣٨]

ولعلنا بـهذا نكون قـد أوفينا مقـدمة القـصيدة عند محمد بـن حمير بعضاً مما تستحقه ولله الأمر من قبل ومن بعد والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- الرمزية في مقدمة القصيدة العربـية ص١٢ وينظر: شعر صدر الاسلام بين الفكر والفن ص٩٠.

٢- كتاب الصناعتين ٢/ ٤٥٢

٣- لم تعرف هناك أصوات داعية الى الخروج عن ذلك قبـــــل العصر العباسي، إلا ما كان من الكميت بن زيد الأسدي الذي دعا الى ترك الوقوف على المنازل العافية، ووصف آثارها البـــالية، ودافعه الى ذلك سبـــب ديني محض هو حبه لآل البيت، لكن هذه الدعوة لم تلق انصاراً وأعواناً.

٤- انظر مقـــــدمة الديوان ص٢٦. وانظر تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ٤/ ٩١

٥- انظر: قرة العيون ص٣٠٥. مقدمة الديوان ص٤١

٦- انظر: مقدمة الديوان ص٣٣

٧- ينظر في سبيل المثال ديوانه ١٤٩ - ١٥٧ - ٢٠٦ - ٢٢٢

٨- ينظر في سبيل المثال ديوانه ١٤٩-١٥٧-٢٠٦-٢٢٢

٩- كانت طبعته الاولى عام ١٩٨٥م، قام بنشره مركز الدراسات والبحوث اليمني، وهو مليء بالتصحيف والأخطاء الطباعية والإملائية

١٠- يدخل في ذلك بعض أبيات لشعراء آخرين ضمنها الشاعر قصائده في مواطن متفرقة. انظر في سبيل المثال الصفحات: ٧٠، ١١٦، ١٧٤، ٢٠٠.

١١- من أدلة ذلك من الديوان ينظر الصفحـــات: ١١١، ١٠٦، ١١٥، ١١٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩ ينظر: تاريخ اليمن الفكري ٤/ ٩٦.

١٢- في سبيل المثال انظر الديوان: ١٠٦، ١١٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

١٣- في سبيل المثال انظر الديوان: ١٠٦، ١١١، ١٢٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

١٤- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول: ٧٤

www.dorat-ghawas.com

١٥. السابق: ٧١.

١٦. الديوان : ١٣٨. والشطر الأخير جاء فيه: وتحمي بيض الهند والأسل الظماء.

١٧. ينظر الكشاف ٦٤/١ . مفتاح العلوم ١٩٩، المباحث البلاغية في ضوء قضية الأعجاز القرآني. ١٨٦.

١٨. الديوان: ٨٢-٨٣.

١٩. السابق: ٦٣.

٢٠. مجلة المورد العدد الثاني ١٤١٩هـ ص٩

٢١. الديوان : ١٧١

٢٢. السابق: ٨١

٢٣. السابق: ٨٢

٢٤. وينظر في سبيل المثال ايضاً الديوان: ٧٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٣، ١٧٦، ١٨١، ١٩٢، ١٩٧، ٢٠٢ .

٢٥. الديوان: ١٩٠

٢٦. الديوان: ٦٠-٦١

٢٧. ديوان ابن الفارض: ١٢٣

٢٨. ينظر : مجموع بلدان اليمن وقبائلها: ٤٢١/٢ وبعد بحث مضن لم أجد في بلدان اليمن موضعا بهذا الاسم (ذي سلم)، وما وجدته هو (بنى سلمة) من بلاد وصاب بلدة الشاعر فلعله إياها عنى.

٢٩. في الديوان الحالي، وهو تصحيف.

٣٠. الديوان. ٢٠٣.

٣١. السابق: ٥٩.

٣٢. في الديوان قفنا بالألف المستقيمة وهو خطأ.

٣٣. الديوان: ١٩٥

٣٤. بناء القصيدة العربية ٢٦٩.

٣٥. الشعر والشعراء: ٧.

٣٦. الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب ٤٠٢.

٣٧. ينظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص ٥٦. ملامح من تطور الرسوم التقليدية في القصيدة العربية قبل الاسلام. مجلة المورد، العدد الثاني ١٤١٩هـ ص٦.

٣٨. الرمزية في الادب العربي ص١٦٣.

٣٩. مثال على ذلك ينظر الديوان من ٤٨-٧٨ فكل ذلك قاله فيهم.

٤٠ في سبيل المثال ينظر : ديوان البوصيري ص١٩٠، وديوان ابن الوردي ص٢٠١ وديوان الشاب الظريف ٥٦، ٦٨، ٦٩.

٤١. في سبيل المثال ينظر : ديوان أبي حيان الاندلسي: ٤٦١.

٤٢. الديوان: ١٦٥.

٤٣. ينظر في سبيل المثال: ديوان مجنون ليلى ١٧، ٢١، ٢٩، ١٢٤، ١٢٨ وديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ٥٢، ١١٤.

٤٤. الديوان: ١٨٦.

٤٥. السابق: ١٣١ - ١٣٢.

٤٦. السابق: ١٧٧.

٤٧. ومثال أوضح على ذلك ينظر الديوان: ٥١، فقد ذكر أحد عشر موضعا

٤٨. الديوان: ١١٧.

٤٩: السابق: ١٣٩

٥٠. السابق: ١٠٢-١٠٣

٥١. السابق: ٧٢-٧٣

٥٢. السابق: ١٣٧-١٣٨.

٥٣. السابق: ٦٤-٦٥.

٥٤. السابق: ١٣٥.

٥٥. السابق: ٩٥.

٥٦. السابق: ٦٩.

٥٧. السابق: ٧٣.

٥٨. السابق: ١٦٦-١٦٧.

٥٩. هكذا هي في الديوان والصواب عينيه في كلا الموطنين.

٦٠. الديوان : ١٨٧.

٦١. ومثال على ذلك ينظر الديوان ٦٣، ٦٥، ١٠٨.

٦٢. أمثلة على ذلك ينظر الديوان: ٦٨، ١٢٥، ١٧٢، ١٩٣.

٦٣. امثلة على ذلك ينظر الديوان: ١٦٦، ١٦٧، ١٧٥، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨.

٦٤. الديوان : ٦١.

٦٥. السابق نفسه.

٦٦. السابق: ٩٧

٦٧. السابق: ٨٣

٦٨. السابق: ٦٣.

٦٩. السابق: ١٨٩.

٧٠. سورة الروم الأية (٥٤).

٧١. الديوان : ١٤٤-١٤٥.

٧٢. السابق: ١٠٦

٧٣. السابق: ١٠٠

٧٤. السابق: ٢٢٥.

٧٥. السابق: ١١٠.

٧٦. السابق: ٩٤.

٧٧ - في سبيل المثال ينظر الديوان: ١٣٤، ١٣١، ١٣٩، ١٢١، ١٠٣، ٩٥، ٦١، ١٤٠.

٧٨. في سبيل المثال ينظر الديوان: ٨٣، ١٧٧.

www.dorat-ghawas.com

المراجع

١ـ القرآن الكريم :ـ

٢ـ الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب (الأدبية وتحليل النص) د. عبد الإله الصائغ، دار الفكر المعاصر، صنعاء، ط١، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م.

٣ـ بناء القصيدة العربية د. يوسف حسين بكار، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٤ـ تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي. أحمد محمد الشامي. منشورات العصر الحديث. ط١، ١٤٠٧هـ.

٥ـ ديوان أبي حيان الأندلسي، تح.د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٩م.

٦ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات شرحه وضبط نصوصه وقدم له د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.

٧ـ ديوان ابن الفارض، اعتنى به وشرحه هيثم هلال، دار المعرفة. بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٢م.

٨ـ ديوان مجنون ليلى. شرحه وضبط نصوصه وقدم له د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.

٩ـ ديوان محمد بن حمير الوصابي، تح. محمد بن علي الأكوع، دار العودة. بيروت ومركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط١، ١٩٨٥م.

١٠ـ ديوان ابن الوردي. مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ.

١١ـ الرمزية في الأدب العربي د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة.

١٢ـ الرمزية في مقدمة القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر. د. أحمد الربيعي، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٩٣هـ.

١٣ـ شعر صدر الإسلام بين الفكر والفن، د. علي كمال الدين الفهادي، دار الشوكاني للطباعة، صنعاء ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٤ـ الشعر والشعراء. ابن قتيبة، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٥ـ الصناعتين أبو هلال العسكري، تح: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٦ـ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون. عبد الرحمن بن الديبع، حققه وعلق عليه: محمد بن الأكوع، ط٢، ١٤٠٩ـ ١٩٨٨م.

١٧ـ الكشاف، جار الله الزمخشري، دار المعرفة. بيروت، ط١.

١٨ـ المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني. د. أحمد جمال العمري، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٩ـ مجموع بلدان اليمن وقبائلها، القاضي محمد بن أحمد الحجري، تحقيق وتصحيح ومراجعة: اسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط٢. ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٠ـ مفتاح العلوم للسكاكي. شرح نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٢١ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، د. حسين عطوان ـ دار الجيل، بيروت، ط٢. ١٤٠٧هـ.

٢٢ـ ملامح من تطور صورة الرسوم التقليدية في القصيدة العربية قبل الاسلام. د. محمود عبد الله الجادر، مجلة المورد. بغداد. العدد الثاني. ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

www.dorat-ghawas.com